

الأمثال والحكم وتهظمراتهما في الرواية العربية

Proverbs and Aphoristic Sayings

Manifestations in Arabic Novels

د. سهاج بن خروف د. عبدالله بن صفية

جامعة برج بوعرييج

الملخص:

وردت الأمثال والحكم في الرواية العربية لحاجات نفسية وأخرى وجدانية، ولعل تجسيدها للثقافة الشعبية داخل العمل الروائي سيزيد من غزارة المدلولات الاجتماعية والإنسانية داخل النص، ولكن دون أن يتعمد هذا النص استحضارها بالحشو المبالغ فيه فتتقاذفها الأحداث، وهي في غنى تام عن معانيها فيسأ استغلالها أو تستعمل في الموقع الخطأ داخل الرواية. إلا أن التداخل الذي تفرضه الرواية العربية مع الأمثال والحكم يبني على استدعاء التراث في ماضيه العريق، وحتى حاضره الدال والهادف، فتؤسس على بنيته التي يسهل على القارئ حفظها وتداولها سياقات جديدة ومتباينة تحفظ به التراث، وتبعته من جديد بفكرة سردية مسيطرة لراهن القارئ.

الكلمات المفتاحية: المثل، الحكمة، الرواية، الثقافة، القارئ، التراث.

Abstract :

Proverbs and aphoristic sayings in the Arabic novel are created to meet the reader's psychological and emotional requirements. They are used to enrich the novel's social and human interpretations by reflecting one's popular culture and this in an irredundant style in order to avoid being misused or misplaced. The Arabic novel is built upon the overlap between the past and present, i.e. the recall of the past through old folklore and popular heritage to interpret the novel's proverbs in their new varied contexts created by the present time reader who makes it his own priority to preserve them and the containing folklore.

Keywords: proverbs, aphoristic sayings, novel, culture, reader, heritage

تقديم:

كثيرا ما يكون حضور التراث الشعبي متفاوتا وغير غالب في الأعمال الأدبية سواء كانت

روايات أو قصص قصيرة أو مسرحيات أو غيرها ، أما القصص الرواية العربية فتتشرب التراث الشعبي بعامة، والمثل بخاصة، كما تركز على استدعاء بعض الأمثال الشعبية التي تخدم سياق المتخيل أو بعض الأغاني الشعبية التي من شأنها أن تعكس ثقافة الشخصيات وأهواءها المتباينة، والمجتمع الذي يعيشون فيه، فيسعى الأديب/ الروائي من خلال استدعائه للأدب الشعبي وللمثل على وجه الخصوص إلى تقديم تطلعاته الفنية والفكرية، فتتنفس روايته هذه المضامين الغنية بصور الحياة ووقائعها وتقولها في نسج سردي جديد وبلغة فنية تجيد وصف الثقافة، ومحاورة الحضارة، وسرد حكايات الأسلاف.

أولا/ في مفهوم المثل الشعبي:

يختلف المثل عن الحكمة؛ في أن هذه الأخيرة تفيد أمرا واحدا هو النصح والإرشاد أما هو "فيفيد معينين: معنى ظاهرا وآخر باطنا فهو في الأول: حدث من أحداث التاريخ، والثاني يمتزج بالحكمة ويلتقي معها في المؤدى"¹ فهو مقترن بزمن وقعت فيه واقعة كانت بدورها باعنا لتحديد مدلوله وربطه بالتجربة الإنسانية التي تقتضي التفسير وأخذ العبرة من مفارقاتها.

فالأمثال والحكم جمل موجزة، غنية الدلالات، تلخص خبرات حياتية، غالبا ما تأتي محملة بطاقات إيحائية وتعبيرية مكثفة، لا تحتاج إلى الأفعال الخارقة أو الأحداث المحفوفة بالمبالغ، فهي أشد التصاقا بالواقع المعيش،

¹ عمر عروة، النثر الفني القديم - أبرز فنونه وأعلامه، دار القصة، الجزائر - الجزائر، ط1، 2000، ص، 15.

التأويل وتوجّهه تارة أخرى، رغم ثباته وتداوله عبر الأجيال المتلاحقة.

فالمثل الشعبي "من الأنواع الثابتة لا يختلف عن المثل الفصيح، وهو بعبر عن مواقف من الواقع الاجتماعي والنفسي، بتكثيف المقولة الكلامية، ويرمي إلى تأصيل أو معالجة ذكية تطرح الإشكال في تلميح لغوي يكمل بالبحث في تصريح منشئه ومضربه"³ وقد تتأوى الأمثال الشعبية كمؤدى كلامي يكتنز محمولات فكرية أو أخلاقية أو اجتماعية، لها واسع النظر في التجارب الحياتية للبشر، ولكن دون أين يقترن بمورد أو قصة فعلية فقد ترد "أقوالاً مأثورة مضبوطة الشكل والدلالة متسعة لمحمولات فكرية كثيرة متصلة بواقع الباعث الإبداعي"⁴ وهو ما ضمن خلودها الكتابي والشفهي في أذهان المبدعين وسوقة الناس، لسمة الثبات التي جعلت منه إرثاً أثريا في شكلها وأساليبها، فصمدت أمام فعل الزمن حتى تنطلق من جديد، وتقرأ بروح مغايرة بما يتواءم والمضرب السياقي الجديد.

والدال على عراقة الأمثال الشعبية هو اعتباره جملة من "تراكمات أفعال وسلوكات من حضارات عديدة، يعود بعضها إلى أزمنة سحيقة حين ألف الإنسان الاجتماع وتآلف مع بيئته، فصمدت وبقيت تحمل ملامح المجتمعات التي نشأت فيها،

وبتجارب الإنسان المتفاعل دوما مع الموجودات، لذا يعتمد إليها الكاتب لتؤدى أغراضا فكرية وأخرى فنية، بما تخلقه من تنويعات لغوية إلى جانب أنّها "تؤدي وظيفة أسلوبية وموضوعية، يراها المؤلف ضرورة أو مناسبة أو منسجمة مع السياق الذي يقدمه"² فتتخلل النصوص الروائية، وتحضر في سياق السرد والحوار المتبادل بين الشخصيات؛ لنقول الكثير بلغة مختزلة وتخطب المشاعر الإنسانية التي انبثقت منها معاني هذه الأمثال والحكم وخصوصياتها.

ومن سمات المثل الشعبي إيجاز اللفظ الذي يسبك ببيان يزيد من سرعة الاكتساب في الوعي الجماعي الذي سينبهر باللغة الغنية بالإحياءات المكثفة، والبعيدة عن الابتذال والوضوح، والتي كثيرا ما تتنّع خلف الكناية مثلا لنقول الواقع، وتعبّر عن حاضر تباينت مفارقاته عبر استحضار قصص لها موردها، وحكايات عايشها أفراد أو جماعات، فتتزلق من مفهومها العام آنذاك لتعطي عديد الآراء والرؤى والخبرات المقومة للسلوك البشري الذي يتعطش لمثل هذه النصوص المختزلة في حجمها، والعميقة في مدلولاتها الفكرية والمعرفية.

والمثل كما نعلم من أبرز الأشكال التعبيرية في الأدب الشعبي الذي يعبر هو الآخر عن قدرات الإنسان في توطين لحظات حياتية تقتضي الوقوف عند بعض محطاتها، وتقديمها بنسق خاص يلتزم إيقاعا معينا يؤثر في النفس تارة، ويسمو بها حين يقد بصيغة كلامية مكثفة تحرك

³ مبروك دريدي، القصة الشعبية في منطقة الهضاب،

منشورات مديرية الثقافة لولاية سطيف، الجزائر، ط1،

2010، ص45.

⁴ المرجع نفسه، ص45.

² أحمد الزعبي، التناس نظريا وتطبيقيا، مؤسسة عمون للنشر

والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 2000، ص63.

أو التي مرت بها⁵ فيتشكل في عصاره تستجمع معها هذه الخبرات الدالة على الموروث الثقافي فتكسرها معها الأعراف والعادات والتقاليد، كما يمكن أن يؤول إلى قاعدة متينة تحفظ معها السلوك الإنساني، وترسخه في أذهان الأجيال اللاحقة.

فما يخلّفه الأجداد من قصص وحكايات مبعثها التأمل في النفس، وما يحيط بها من موجودات وبذلك يجوز تسويغه وفق المجالات التي يقال فيها، أو يقال من أجلها فهو يهدف إلى تقويم السلوك وتهذيب النفس والسمو بها إلى ما يزيد رقا ووقارا، ويحافظ على الإرث الثقافي والحضاري بما هو حصيلة التجارب القديمة، وتعبير عن الأصالة بعينها فهو "قديم قدم الإنسان وهو الرصيد المعرفي أو الثقافي الذي تحافظ الأجيال على خلوده بالتداول، لأنه يجمل تجارب أجدادها، ويحفظ تماسكها وتوازنها في مواجهة الحياة اليومية بهمومها ومتاعبها، وهو في الوقت نفسه المادة التراثية التي تحفظ للإنسان أصوله وتجسم عراقة⁶ بالإضافة إلى أنه يرمي إلى تقويم اللسان نظرا لنظم القول، وبلاغة الكلام فيه، فلا يقال بلغة بسيطة صارخة بالمعاني وإنما تسير على خطى الكناية والتشبيهات والمجاز حتى تخلص إلى التعريف بطبائع الناس وشماثلهم.

والمثل الشعبي كثيرا ما يرد طريفا ممتعا متقنا ومكتنزا بالدلالات التي تتخفى في الجمل القصيرة وتتحول إلى حافز يحرك التأويل والتقيب والذكاء لدى القارئ، فله بنيته اللغوية المميزة فمثلا لو أمعنا النظر في المثل الشعبي الجزائري، نجده يتمظهر في شكلين لغويين "الأول المتضمن معناه في جملة بسيطة مثل: مغلوبتي مرتي، والآخر مركب من جملتين فأكثر يربط بينها الإيقاع، ويمكن الاستغناء عن واحدة منها لأن كل جملة من جمل المثل المركب مستقرة بدلالة لا علاقة لها بسابقتها أو اللاحقة بعدها⁷ فتنوع الدلالات من جملة لأخرى، ولا ترد سطحية بل تتعمق في الثقافة المعبر عنها، وتزخر بكتلة من الأفكار التي تقرأ من جديد وبتأويل متجدد.

ثانيا/ تداعيات حضور المثل في النص الروائي:
تستقبل الرواية العربية الأمثال الشعبية الموجزة لا لتعرضها أو تحللها بما يتواءم وأحداثها أو انبثاها بشكل عام، وإنما لتجعل منها خطابا مكتفا له سياقه المحدد ودلالاته التعبيرية التي تجعل منه أداة وجيهة وردت لتقول الكثير من الأحداث بفضل التداخل النصي الذي يتجلى على مستوى المكونات السردية المعروفة بخاصة الشخصية واللغة.

ويمكن اعتبار استضافة الأمثال الشعبية، واستخدامها استخداما شكليا مقصودا يجذب القارئ العادي، ويخاطب ثقافته من جهة، أما اعتماد الموضوع؛ فلكي يؤثر تأثيرا مباشرا في الوجدان رغم السياق الجديد من جهة أخرى "والأدب الشعبي هو الأدب الجميل الذي أمكنه

⁵ محمد عيلان، محاضرات في الأدب الشعبي الجزائري، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة، الجزائر، ج 1، 2013، ص 87.

⁶ محمد عيلان، محاضرات في الأدب الشعبي الجزائري، مرجع سابق، ص 91.

⁷ المرجع نفسه، ص 90.

أن يبقى وأن يعيش ألوف السنين ملتصقا وملتحمًا بالشعب في قاعدته العريضة⁸ فيتجاوز الدلالة المتعارف عليها والسائدة ثقافيا بين أفراد المجتمع، لذلك يمكن أن نعتبره تأثيرا شكليًا بارزا مع إعادة الصياغة الكمية أو النوعية التي تقتضي في بعض الأحيان تقنيات تخرج الأشكال الشعبية من بساطتها إلى كثافة تعبر عن قيم تاريخية أنثوغرافية وأخرى جمالية.

ثالثا/ أبعاد الأمثال في نماذج الدراسة:

سنعتمد في مداخلتنا هذه ثلاثة نصوص روائية عربية لتكون متحكما قاعديا، ومتكأ صارما لتفعيل المقاربة والوصول إلى النتائج، وهذه النصوص هي: "الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء" للطاهر وطار، "أوان القطار" لمحمود الورداني، "الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل" لإميل حبيبي.

ومن ضمن ما استخدمه الروائيون من أمثال وحكم وأقوال مأثورة أثرت الدلالة وفقا لسياقها النصي الذي أدمجت فيه أذكر: "خير البر عاجله"، "الحاجة أم الاختراع"، "الذي يتزوج أمي هو عمي"، "خيرها بغيرها"، "زيادة الخير خير"، "رب أخ لك لم تلده أمك"، "من خلف ما مات"، "لا علم بدون سحر ولا سحر بدون بخور"، "رب ضارة نافعة"، "لكل جواد كبوة".

بالإضافة إلى "الحب ما نحبك والصبر ما نصبر عليك"، "الفرخ في يد من زوى"، "في التاني السلامة وفي العجلة الندامة"، "تمتع الغني بما

جاع به الفقير"، "يا خبر بفلوس بكرة يبقى ببلاش"، "اللعاب حميدة والرشام حميدة"، "أخسر وفارق"، "السارق يغلب العساس"، "بنت الوز عوامة"، "اللي خلف ماماتش" وغيرها.

لقد وردت هذه الأمثال والحكم في سياقات نصية مختلفة لكنّها اشتركت جميعا في مؤداها المستقبلية الذي تختلف صورته وبعده من مقولة إلى أخرى. ولأنّ هذه المقولات هي خلاصة زمن سابق، فقد جاءت مثقلة بدلالات زمنية حاضرة ومستقبلية "بواسطة ألفاظ لا تحمل وظيفة الزمان صراحة، ولكنّها تحملها بما وضع فيها"⁹ وداخل سياق يؤطر مدلولها ويحدّد الهدف منها.

ففي أحد المشاهد الحوارية من رواية "إميل حبيبي" يقول يعقوب اليهودي مهددا المتشائل بعد أن عمل لصالحهم فزور الانتخابات لغير الشيوعيين الذين حرّمهم من حقهم ومن الأصوات المعبرة عن حب الناس لهم:

"- راحت يعاد عليك. كيف سمحت للشيوعيين بأن ينالوا كل هذه الأصوات؟ [على قلنتها] - أنا؟!"

- يا الله؟! خيرها بغيرها.¹⁰

ينفتح هذا الخطاب الحوارى على أحد الأمثال المستوحاة من الثقافة الشعبية، وهو (خيرها بغيرها)، أو مثلما يرد عند البعض (خيرها في

⁹ عبد الملك مرتاض، الأمثال الشعبية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 2007، ص 74.

¹⁰ إميل حبيبي، الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس

المتشائل، دار ابن خلدون، بيروت، لبنان، ط2، 1974، ص83.

⁸ يسري شاكر، حكايات من الفولكلور المغربي، حكايات من الفولكلور المغربي، تقديم: محمد عباس الجاروي، الجزء الأول، دار النشر المغربية، المغرب، دت، ص30.

ومن الأمثلة الأخرى نجد ما اشتركت فيه رواية "إميل حبيبي" مع رواية "الورداني"، فأوردته الأولى بالفصحى (من خلف ما مات)¹²، والثانية بالعامية المصرية (اللي خلف ماماتش)¹³. وقد جاء هذا المثل ليرسم في الروايتين أهمية الأبناء بعد وفاة الوالدين، فهم بمثابة استمرار لحياتهما، وفكرهما .. لذا فمستقبل الميت من حاضر ومستقبل الابن لأنّ فعل هذا الأخير ما هو إلا ثمرة ما غرسه الآباء فيهم، خاصة في ظلّ الوضع الفلسطيني تجاه قضية الوطن.

وبالنسبة لرواية الولي الطاهر، فالملاحظ أنّ "وطار" قد ضمّن مجموعة كبيرة من الأمثال والحكم، فجاءت على حجمها الصغير مترفة دلاليا. ومن ضمن ما ورد فيها ما يلي:

• **يا خير بفلوس بكرة يبقى ببلاش**¹⁴:

وهو مثل عربي استخدم في الرواية ليشي بالكسل الذي تعرفه الأمة العربية، وعن عدم اهتمامها بالحاضر أو المستقبل. وعن سياقه، فقد ورد عندما احتدم الصراع حول سبب السواد الذي انتشر، فبدل أن يبحث العربي عن السبب لوحده، اكتفى بالانتظار، فراجع وترك غيره يبحث.

ولفظه (بكرة) تحمل في ذاتها معنى المستقبل، وبالرغم مما تظهره من تحديد زمني تقديره غدا إلا أنّها في سياق المثل منعقة من أيّ

غيرها)، وقد جاء هذا المثل منسجما مع السياق الروائي والرؤية المستقبلية التي يريدها الكاتب، فحين تلاعب المتشائل بنتائج الانتخابات لصالح قوائم الإسرائيليين الانتخابية من أجل الإبقاء على يعاد، جاء يعقوب ليزيد من عمر علاقة المتشائل مع الكيان، فمدّها زمنيا نحو المستقبل بحجة وجود بعض الأصوات الشيوعية التي مرّت عليه دون أن ينتبه، وهو ما استدعي لأجله المثل (غيرها بغيرها).

الملاحظ أنّ الروائي قد بتر الحوار عند هذا المثل، فترك بعده فراغا معنوياً، هدف منه إلى إشراك القارئ في إنتاج الدلالة الممتدة بخيوطها نحو القادم.

وإذا كان الروائي قد توسل المثل الشعبي الذي صيغ بدلالة عامية للتعبير عن المبتغى من طرف اليهود، فإنّه في موطن آخر استثمر غيره باللغة العربية الفصحى للتدليل عن السبب الرئيس الذي جعل المتشائل يساير الإسرائيليين، وينحو نحو مستقبلهم حيث يقول: (في العجلة الندامة وفي التأني السلامة)¹¹.

فلفلسفة المتشائل التي لخصها الروائي في هذه الحكمة لم تتعارض مع المثل السابق بل توافقت معه إلى حدّ كبير، فالتأني والانتظار الذي عوّد سعيد نفسه وعائلته عليه، وعدم استباق القادم بالفعل هو ما أمّدّ عمر خيانتته ومنه عمر الاحتلال في الأرض الفلسطينية. وبذلك يكون مدلول الحكمة من مدلول المثل السابق، انسجاما وتكملة.

¹² المصدر نفسه، ص 189.

¹³ محمود الورداني، أوان القطاف، أوان القطاف، دار الهلال، القاهرة، مصر، ط1، 2002، ص 49.

¹⁴ الطاهر وطار، الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء. منشورات

الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء،

المغرب، ط1، 2005، ص 69.

¹¹ إميل حبيبي، الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس

المتشائل، مصدر سابق، ص، 126.

العربية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ولعلّ في هذا إعلانا لدور المثقف [الذي اكتفى في وقت ما قبل نفاد البترول بنقل الحدث] التشييدي فيما سيأتي من زمن دون بترول.

• أخسر وفارق¹⁷:

وهو مثل شعبي يستخدم للتعبير عن الاكتفاء بالخسارة الآنية بدل خسارة كبرى لاحقة، فالفراق حدّ بين الإنسان والمستقبل المشؤوم القادم. وقد استخدمه "وطار" عند حديثه عن ليبيا وعن القرار الذي خرج به مؤتمرها، حين تخلّت عن مشاريعها التسليحية وعن أموالها التي خسرتها جراء ذلك .

خاتمة:

وفي الختام يمكن القول إنّ استلهاهم الروائيين للنصوص الأمثال كان عنصرا أساسيا في البناء اللغوي لرواياتهم، ومظهرا من مظاهر التعدد اللغوي فيه، ناهيك عما أفادته من إحالات دلالية طعّمت رؤيتهم ودعمتها سياقيا بما يتواءم والفكرة المركز التي يبتغونها من نصوصهم.

بالإضافة إلى نسيج الرواية قد استزاد بإمكانية التأويل التي تستتبع معها ضرورة التسلح بثقافة لا بأس بها فيم تعلق بالتراث الشعبي، وثقافة الأجداد ومعتقداتهم الشعبية، ومحاولة الدراية بقدر من القصص والطقوس، التي تعبر عن سلوكيات الأسلاف وخصوصياتهم.

قيد، فهي لفظة تفيد المستقبلين معا: القريب والبعيد معا.

• ربّ ضارة نافعة¹⁵:

وهي حكمة، والحكمة تحمل دوما مستقبلا في ذاتها لأنّها موجودة بمعناها قبل وقوع الحدث، ففي مثل هذا المثال قد استخدمت ربّ لاستحسان الضارة إن عادت بنفع، وهو نفع يقع بعد الضرر، فإن لم يقع فهو المنتظر والمستشرف، وإن وقع ثبتت الحكمة ونفذ في المستشرف معناها.

وقد وردت هذه الحكمة في الرواية معبرة عما تكبده المراسلون حين نقلهم الخبر دون صورة، فمن يسمع ولا يرى يكون عليه التثبت أكثر مما ينقله، لكن وبعد انقشاع السواد عرف الصحفيون نعمة النور الذي من المفترض أن يستوجب وجوده نقل الصورة الحقيقية لما يقع وما وقع وما سيقع كما يراها المثقف.

• لكل جواد كوبة¹⁶:

وردت هذه الحكمة في الرواية بعد الحكمة السابقة لتتم معناها وتؤكد، وقد ظهرت في النص مبتورة من نصفها الثاني (ولكل عالم هفوة)، إشراكا للقارئ واستدعاء لثقافته، وعن سياقها نجد أنّ هذه الحكمة قد جاءت لتوثق الوعد بين المراسل/المثقف وبين المشاهد/عامة الناس، فما كان من إخفاء للحقيقة وتورية لها سوف لن يتكرر بعد هذا الانقشاع.

والملاحظ أنّ هذا الوعد قد جاء متأخرا فانقشاع السواد استتبع نفاد البترول، وانهيار الأسس

¹⁷ الطاهر وطار، الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء، مصدر

سابق، ص 80.

¹⁵ المصدر نفسه، ص 75.

¹⁶ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- عمر عروة، النثر الفني القديم – أبرز فنونه وأعلامه، دار القصبة، الجزائر – الجزائر، ط1، 2000.
- 2- أحمد الزعبي، التناص نظريا وتطبيقيا، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 2000.
- 3- مبروك دريدي، القصة الشعبية في منطقة الهضاب، منشورات مديرية الثقافة لولاية سطيف، الجزائر، ط1، 2010.
- 4- محمد عيلان، محاضرات في الأدب الشعبي الجزائري، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة، الجزائر، ج1، 2013.
- 5- يسري شاكر، حكايات من الفولكلور المغربي، حكايات من الفولكلور المغربي، تقديم: محمد عباس الجباري، الجزء الأول، دار النشر المغربية، المغرب، دت .
- 6- عبد الملك مرتاض، الأمثال الشعبية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 2007.
- 7- إميل حبيبي، الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل. دار ابن خلدون، بيروت – لبنان، ط2، 1974.
- 8- محمود الورداني، أوان القطاف. أوان القطاف، دار الهلال، القاهرة . مصر، ط1، 2002.
- 9- الطاهر وطار، الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء. منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء . المغرب، ط1، 2005.